الزيارة

رن جرس التلفون في بيت إلهام فأمسكت به خافقة القلب.. كان هذا شأنها منذ أيام.. ترقب الزيارة بانفعال وتحس في أعماقها أن تطورا سعيدا سينبثق عنها.. لم تلهف نحو التلفون ولم تحس بحنين قلبها يطفر دمعا رقيقا في عينيها وهـي تصغي إلى صوت العقيد عزيز القوي الصافي النبرة ينساب إلى فؤادها..

ستراه اليوم!.. وبقيت لحظة تحلم وهي تذكر نظرته الحنون فتهزهـا بنـشوة عذبة ولكنها لم تلبث أن كبحت أشواقها وهي تحدث نفسها:

- لا يجب أن يلحظ انفعالي أبدا.. سيظن أنني أسعى نحـو مجـده واسـمه اللامع.. ولن يعرف أن حبه قد تسلل إلى قلبي قبل أن أشاهده بأعوام.. ولن يخطر له أنه كان حلمي مذ بدأت أحلم بالرجل الذي أتمناه..

أما العقيد عزيز فلم يفكر في إلهام بمثل هذه اللهفة والعنف، وإن كان خيالها لم يبارح فكره في غمرة مشاغله.. وراح يعجب أي شيء فيها أثـار عواطفـه.. كان فيمن عرف من الفتيات أجمل منها وأكثر فتنة ودلالا وإغراء.. ولكن قلبه كان ينكمش كلما فكر في اختيار إحداهن زوجة له.. لقد كان يشعر بأن الإطار الذي يراهن فيه إطارا مفتعلا مزيفا، فهو لا يـدري أي شـيء يخفـين وراء لطفهن وبسماتهن.. وكثيرا ما كان يردد لنفسه بأن الحفـلات لا تـصلح أبـدا لاختيار شريكة حياة.. فلما رأى إلهام أحس بأنه أمام روح صـافية واضـحة،

وقلب حنون جريء فانطلقت نحوها عواطفه كما ينطلق عصفور سجين فتح له باب الحرية..

فكر في أن يخطبها لنفسه ولكن الخوف من المستقبل جعله يتردد.. كان في تلك الفترة يعاني شبه قلق نفسي وهو يشعر أن حياته مهددة، ومستقبله غامض، ونضاله طويل مرير مع الإستعمار وأعوانه.. فهل يصلح للزواج من نذر نفسه لنضال عنيد؟.. فقاوم الرغبة في زيارتها أياما ولكنها ألحّت عليه وخُيل إليه أن المروءة تدفعه أن لا يخلف وعده بزيارتها، والواجب نحو صديقه الشهيد يدعوه أن يرعى شؤون الفتاة ومستقبلها..

واستقبلته إلهام بوجه طافح بالغبطة.. كانت ترتدي ثوبا كحليا من الصوف يبرز تقاطيعها النحيلة المنسجمة وقد عقصت شعرها المذهب في كعكة كبيرة إلى الخلف وقادته إلى غرفة تكاد تكون خالية إلا من مكتبة حافلة وبيانو علقت فوقه لوحتان صغيرتان لفنان سوري مجهول تمثلان منظرين من مناظر "غوطة دمشق" المفعمة بالجمال، وبضعة مقاعد من القش عليها وسائد.. وفي وسط الغرفة مدفأة تُشعل بالحطب..

كان العقيد عزيز قد زار المنزل حين كان صديقه على قيد الحياة فهاله الفراغ الذي يصفر في كل مكان، وحزر أن العائلة تعيش في ضيق فسأل إلهام وهو يحاول أن يصبغ لهجته بنبرة عملية:

- ألم يصرف لكم تعويض المرحوم بعد؟..

وعبق وجه إلهام بحمرة قانية، ورفعت حاجبها علامة النفـي دون أن تقـول شيئا.. لقد جرحتها كلمة المرحوم، فهي لا تفكر بخالها إلا أنه حـي لا يـزال يهمس في أذنيها آراءه في الحياة، ويحدثها عن التجارب التي مرت به وتـأثره بها وآماله في مستقبل مشعّ فاضل..

وران الصمت بالرغم من غنى العواطف وفيضها في صدر الشابين.. كانـت عينا إلهام تبحث في العقيد عزيز عن الصديق الذي فقدته في شخص خالهـا.. تريد أن تفتح له مغاليق نفسها.. تريد لو ترتمي على صدره وتبكي.. تريد لـو تقول له بأن ابتسامته الحنون تسكب العزاء في فؤادها، وتبرد لوعتها.. تريد أن تغرق حزنها في شيء أكبر وأخلد من الحزن، في حب كبير!..

وبقيت تلك الإنفعالات حبيسة في صدرها تنم عنها عيناها القلقتان فيشعر العقيد عزيز بموجة من الإشفاق تغرق أحاسيسه دون أن يدري لذلك سـببا ويهمـس لنفسه:

- إن الإشفاق طريقي إلى الحب.. إنني أعرف مكمن ضعفي.. سأحب هـذه الفتاة حبا عنيفا بالرغم عني!..

ووجد نفسه يسألها بعطف:

- حدثيني عن نفسك!..

ونظرت إليه بدهشة.. ماذا تحدثه عن نفسها؟.. إن نفـسها عـالم كبيـر مـن الانفعالات وليس فيما مر بها شيء مجسد لا يعرفه وأجابت بحيرة وهي تحسر عن جبينها خصلة صغيرة نشزت من شعرها المتناسق:

- إنني كما ترى، فتاة عادية..عادية جدا.. لست فنانة ولست أديبـة ولـست عالمة ولست أومن بفكرة معينة جلية أناضل من أجلها..

وصمتت قليلا ثم أردفت وهي تحك ذقنها:

- ومع ذلك يرهبني أن تمر حياتي عبثا.. أريد أن يكون فيها، في حياتي شيء يعيش من بعدي..

ولم تلبث أن دخلت والدة إلهام.. كانت نحيلة ترتدي السواد وتضع على رأسها منديلا أبيض ناصعا لفّته حول وجهها المربع المـستنير.. ورحبـت ببـشاشة بالعقيد عزيز الذي انتفض واقفا من كرسيه لاستقبالها.. ولكن إلهام لم تـشعر بالإرتياح لنظرة الحذر التي بدت في نظرات أمها.. تلك النظرة التي تشع فـي عيون الأمهات اللواتي لا يثقن بالشباب، ويخفن في رعب همسات الجيران..

وجلست الأم وهي تعبث بسبحتها وتقول:

- كنت أصلي صلاة العصر..

وغمزت إلهام بعينها ففهمت أن عليها أن تعد القهوة، وانفلتت من الغرفة علـى عجل واستحياء وفي أعماقها خشية أن تتحدث والدتها بما يحرج موقف الشاب

أو يجرح إحساسه، فهي تعلم تزمتها وطبيعتها الشكوكية وعجزها عن المجاملة.. وراحت إلهام تذكر نصائح والدتها المكررة..

- إياك أن تثقي برجل!.. إياك أن تؤمني بعباراته الملتهبة المعسولة!..

وتذكر القصة التي روتها لها والدتها أكثر من مرة عن والدها:

- كان يحبني.. كان مغرما بي حتى الجنون.. إن رسائله تشهد كم كان يتحرق شوقا إلي.. ولكنه هرب بعد زواجنا ببضعة أشهر ولم أدر أنه هاوي تشرد واقتناء زوجات إلا بعد فوات الأوان.. كان مؤرخا متجولا يهوى الرحلات والبحث ويقيم له علاقة زوجية في كل بلد يقيم فيه إلى حين..

وكثيرا ما كان الحنين يفيض بقلب إلهام لذلك الوالد الذي هجرها وهي بعد جنين وتتخيل أن لها إخوة وأخوات في بلاد أخر وتتمنى لو أن الحياة تجمعها بهم.. وينمو في نفسها شعور مغاير تماما لشعور والدتها الناقم.. إن في أعماقها حبا غامضا للناس في كل مكان كأنما هم إخوة لها.. ولقد وقاها الحنان الذي أسبغه عليها خالها أن تتكون في نفسها عقدة من الرجال.. ومع ذلك استفادت من تجربة والدتها فحثتها على الدرس والتحصيل لتعتمد على نفسها حتى يكون العلم لها درءا من سوء الحظ لو حدث..

كان قلب إلهام مفتحا للحب في تلك الأيام الكالحة التي مرت بهـا بعـد مقتـل صديقها الأوحد.. لكأنما تبحث فيه عن إشعاعة تبدد ظلمة يأسها.. إن حزنهـا الحنون يتمرد حتى على السواد الذي ترتديه أمها، على جدران المنزل القاتمة، على الصمت، على العزلة التي لفت طوقها الثعباني حولها.. إن في أعماقهـا شيئا يود لو ينطلق لجو أزخر وأحفل بالبهجة.. كانت مهيأة وجدانيا للوقوع في أي حب ولو كان وهما وسرابا.. ولهذا فتحت روحها لأسـتاذ متـزوج مـن أساتذتها في الجامعة.. كانت الإشعاعة الحزينة التي تطل من عينيه تملأ قلبهـا جوى.. وصوته المفعم الحنون يهز كيانها.. لقد أحبها هو الآخر فـي صـمت وفي نبل.. وأخذت تلك الهاربة من الألم والوحدة تغوص في قاع آخر من ألـم جديد ووحدة جديدة وتكافح بكل قواها موجات الأوهام التي لا أمـل فيهـا ولا رجاء وتهمس لنفسها وكأنها تتعلق بحبال النجاة..

- لن ينقذني سوى العمل.. عمل مجدي أصهر فيه كياني المعذب.. ولم تـدر أية إرادة خفية جعلتها تتذكر في محنتها النفسية صديق خالها..

مرت تلك الصور السريعة في خاطر إلهام وهي تشعل وابور الغـاز وترمـق بشرود النار الحمراء التي تتراقص ثم تتحول إلى لهـب أزرق فـي رأسـه، وتضع فوقه ركوة القهوة..

وفار الماء وهي تحلم وأطفأ الوابور فأسرعت توقده وقد تبعثـرت أحلامهـا.. ولما انتهت إلهام من سكب القهوة وعادت إلى الغرفة كانت والدتها في جلـسة منسجمة مع العقيد عزيز ونظرت إلى إلهام والابتسامة تشع في وجهها وقالـت وهي تتناول فنجانها:

- ألن تسمعينا شيئا من عزفك؟..

وعجبت إلهام لتصرف والدتها ولكنها سرّت في أعماقها وشاع الرضـى فـي قسماتها.. ولما جلست لتعزف خفق قلبها وسرت البرودة في أطرافها وشـحب وجهها.. وحين سرحت بأنظارها نحو والدتها كان العقيد عزيز مكبا يشعل لها لفافة وله أخرى فابتسمت ولم تلبث أناملها أن انسابت على البيان فـي براعـة وخفة.. وتجاوب اللحن شجيا كأنما يعتصر روحها.. لقد ذكرت في تلك اللحظة خالها وولعه بالموسيقى والنشوة التي كانت تهزه وهو يصغي إلـى عزفهـا.. وأفعم قلبها باللوعة والحنين وسالت دموعها قطرة وراء قطرة على المعـزف، وعبثا حاولت أن تكبح جماح انفعالاتها وتركت مكانها تريـد أن تنفلـت مـن الغرفة ولكنها اصطدمت بالعقيد الذي كان منحنيا خلفها يرمقها بدهشة وحنـان وانفعال.. لم تكن والدتها هناك وأحست إلهام بعواطفها ترهقها.. لن يكون هذا الرجل لغيرها.. إنه يبادلها الحب والإعجاب.. إنه يعصر يديها بلهفة وعينـاه تسرحان بوجهها في نشوة:

- إلهام!..

ولم تجب.. كانت تبكي على صدره وشفتاها ترتجفان..

* * *